جامعة عمر المختار
كلية التربية ـ البيضاء
مجلة كلية التربية (مجلة علمية محكمة)
العدد الثالث لعام 2018

الإشارات التاريخية
في رثاء البحتري للخليفة المتوكل (232–247هـ)
بحث مقارن مع رواية المؤرخين

DOI: https://doi.org/10.54172/et1e2315

أ. عبد الباسط صالح يونس الجياش
كلية التربية / البيضاء
الدرجة العلمية: محاضر
التخصص الدقيق: أدب عربي قديم (عباسي)
البريد الالكتروني: abdalbaset.algiyash@omu.edu.ly

الملخص

يهدف البحث إلى دراسة قصيدة البحتري في رثاء (المتوكل) الخليفة العباسي العاشر، ومحاولة قراءة الرابط بين الوصف الوارد فيها، والمقارنة بينها وبين الأخبار الواردة عن مقتله في كتب التاريخ العربي؛ دراسة تحاول وضع الشعر كوثيقة تاريخية لا يجب إهمالها، والسعي لتصور نمط الحياة السياسية التي أدت إلى هذا الاغتيال.

اتّبع البحث منهجا تاريخيا مقارنا؛ للوصول إلى مواءمة مقبولة بين ما ذكره التاريخ وبين ما عَبَّر عنه البحتري في قصيدته المشهورة، هذا البحث اقترب ـ حسب وجهة نظر الباحث ـ من كشف بعض المبالغات في وصف الرواة لحادثة الاغتيال، وحاول وضْع أسباب كثيرة لتوقع حدوث مثل هذه الوقائع في ذلك الوقت.

Abstract

The research aims to spot the light on Buhturi poem (The Commiseration of Khalifa Al-Abbasi The Tenth) in attempt to read the description un the poem and cimpare it to the history of the poem in different Arabic history books ،and to register the historical document that can not be neglected. In addition ،the political life pattern that lead to this assassination must be improved. The research followed a historical approach harmonizing and comparing between the history and the Buhturis poem. The approach revealed some exaggerating in narrating and in the description of the assassination and reasons of it.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

المقدمة

لكل قصيدة حكايتها الخاصة التي يختلط فيها الخيال بالحقيقة، والوصف المبالغ فيه بالواقع المتعارف عليه، ولعل مقتل خليفة على يد حراسه في دولة كبيرة يتجاوز المسائل الجنائية، ويتحول إلى حدث عظيم ومؤثر على كل الأصعدة، ولما كان الشعر ديوان العرب صار لزاما عليه أن يوثق ذلك بشكل سريع، ويصف الحالة من أقرب طريق، من أجل هذا كان النظر في قصيدة ترثي المتوكل مثيرا من الناحية التاريخية، قبل أن يأخذنا بديع وصفها لحالة قصر الخلافة، وبالأسلوب الفني الذي يجيده البحتري.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في دراسة مدى قابلية النص الشعري للشروط التاريخية، ومدى امتلاكه للحقيقة المجردة في جزء أصيل من مادة وصفه، وإمكانية التعويل عليه في إظهار ملابسات غائبة في التاريخ العربي.

أهداف البحث وأهميته:

يهدف البحث إلى استخدام النص الأدبي في الاستشهاد التاريخي، والاستعانة بأخباره في رواية التاريخ عن طريق تفاصيل دقيقة، ومساعدة المتابع لفن الشاعر من عيش تلك الأزمة بكل مؤثراتها، دون إغفال الميل النفسي وتوجه الشاعر العاطفي تجاه قضية يدعمها بقوة.

الدراسات السابقة:

حظيت الجعفرية بالكثير من الدراسات البلاغية والجمالية، ونالت من الشروح ما يفيها حقها، ونال البحتري جزءا من شهرته بها، من ذلك بحث بعنوان (اللوحة الطللية ودلالتها في مرثية البحتري (يسري، 2010)، بالإضافة إلى شروحات الديوان، لكن البحث عن مصداقية الأخبار في النص الشعري، ومقارنته بما ورد بكتب الأخبار لم ينل شيئا من الاهتمام والمتابعة، على الرغم من التباين الكبير في تداعي أحداث مقتل المتوكل وترتيب الأزمنة فيه مع ما تناوله نص البحتري من مواقف وأحداث.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

الفروض

تم وضع فرضية إدراج قصيدة البحتري كوثيقة تاريخية توثق للأحداث التي جرت في قصر المتوكل، ومنحها بعض الصلاحية في رسم مجرى الحدث من وجهة نظر شاعر عاش في قصر الجعفري لسنوات طويلة، والبحث هنا لا يدافع عن رأي البحتري ولا يتعاطف معه؛ بقدر ما يولي العناية الكافية لنص تناول الحادثة بشكل دقيق ومفصل ربما يضع قليلا من الحقائق التي غفل عنها المؤرخون.

المنهج المتبع:

واتبع هنا المنهج التاريخي المقارن، مع خصوصية النص الفني من حيث الوصف والتشبيهات الواردة في النص، التي لا تتلاءم غالبا مع المنهج التاريخي الخبري.

المناقشة

أولا – وظيفة الشعر في حفظ التاريخ:

التراث الشعري لا يمتعنا فقط؛ بل هو كما يقول (ضيف 1971م ص9): "يرينا صورة الحياة عند أسلافنا، وكيف كانوا يعيشون، وكيف يفكرون، وكيف يتناولون الحياة، وكيف كانوا يستقبلون أحداثها" وهم كما يقول ضيف موضع آخر: "الذين يحدثوننا بها من دون وسيط ومن دون حجاب، من أجل ذلك كان الشعر أقرب إلى الحقيقة من التاريخ الذي لا يعطي الحقيقة مباشرة إلا نادرا".

وتكمن وظيفة الأدب في "نقد الحياة" مما يفيد أن الأديب يجب أن يتناول موقفا إنسانيا أو تجربة بشرية، حتى يفتح آفاقا إنسانية رحبة، فإذا كان النقد الأدبي عند العرب كما يقول (خلوفة 2014م، ص 39): "قد نضج واتخذ مذاهب عدة، فإن تاريخ الأدب ظل متخلفا، لأن كل مؤرخي الأدب العربي من القدماء لم يصدروا عن منهج دقيق".

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

ويضيف (خلوفة 2104م): "أن ثمة فارقا بين النظرة العربية والنظرة الغربية في تعريف الأدب: فبينما نرى الغربيين يُعرّفون الأدب في نفس المجالات الدراسية بتعريف أوسع وأعمق، فهو يشمل كافة الآثار اللغوية التي تثيرنا بفضل انفعالات عاطفية أو إحساسات جمالية، وبذلك لا يميزون الأدب بالصنعة فحسب، بل يميزونه بأثره النفسي الذي ينبعث عن خصائص صياغته".

بهذا يبدو الأدب مؤهلا لتحديد الأهداف غير الأدبية، من تأصيل وتبرير ومجادلة ودليل، ويعطي لنفسه فرصة الرأي في مسائل قد لا تكون من ضمن أولوياته، كالتأكيد على الأحداث التاريخية، وتتبع المجريات بدقة، والانشغال بالتفاصيل، لكن الرؤية الكلية التي يرسمها النص الأدبي تمنح الفرصة لمشهد عام، لا ينبغي أن ينفصل عن الأحداث الجارية ولا يمكنه التغريد خارج سربها.

والأدب من حيث كونه يحفظ الجانب الأكبر من التاريخ؛ فهو صالح للاستشهاد به من الناحية التاريخية، وكما هو الحال مع الشواهد النحوية في المسائل اللغوية؛ فامتلاك اللغة لدى شاعر كبير كالبحتري، ووجوده قرب المكان؛ يضع نصه الشعري في وصف قصر الجعفري ورثائه للمتوكل في قائمة المصادر التي توثق ذلك الصراع.

هنا يجب التأكيد على أن الحالة السياسية في ذلك الوقت لم تكن بمعزل عن قضية الاغتيال مطلقا، والمتتبع للأحداث التي سبقت الاغتيال يمكنه التنبؤ بهذا التخلخل في الأسرة الحاكمة، والتي عبر عنها البحترى صراحة من خلال أبياته.

وللمقارنة بين الروايتين لا نجد مناصًا من ذكر جانب تاريخي بداية بالخليفة (المتوكل على الله) وأخبار ولايته ومقتله.

1- المتوكل على الله:

ذكره (ابن خلكان 1972م 350.1) في وفيات الأعيان: "وهو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي، أمه تركية تسمى شجاع، بويع له في ذي الحجة سنة 232هـ، وقتل في شوال ليلة الأربعاء سنة 247هـ".

والحديث عن بداية تولي المتوكل الخلافة إلى مقتله قد يأخذ وقتا طويلا في السرد التاريخي الذي لا ينتهي، وقد درج رواة التاريخ على نسج قصص طوال لمشاهد قصيرة، وهذا شأن الأسلوب السردي، فهم يروُون دقائق أحداث وأقوال لا يقوى صاحب الشأن نفسه عن تذكرها؛ من ذلك ما أورده (ابن كثير 1988، 385.10) في البداية

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

والنهاية: "من أن المتوكل أمر ابنه عبد الله المعتز الذي هو ولي العهد من بعده أن يخطب بالناس في يوم جمعة، فأداها أداء عظيما بليغا، فبلغ ذلك من المنتصر كل مبلغ، وحنق على أبيه وأخيه، فأحضره أبوه وأهانه وأمر بضربه في رأسه وصفعه، وصرّح بعزله عن ولاية العهد من بعد أخيه، فاشتد حنقه أكثر، فلما كان يوم عيد الفطر خطب المتوكل بالناس وعنده بعض ضعف من علة به، ثم عدل إلى خيام قد ضربت له أربعة أميال في مثلها، فنزل هناك ثم استدعى في يوم ثالث شوال ندماءه على عادته في سمره وحضرته وشربه، ثم تمالأ ولده المنتصر وجماعة من الأمراء على الفتك به فدخلوا عليه ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال، ويقال من شعبان من هذه السنة، وهو على السماط فابتدروه بالسيوف فقتلوه ثم ولوا بعده ولده المنتصر".

يؤيد ذلك ما أورده (ابن الأثير 1995، 136.6) في كتابه الكامل في التاريخ، فهو يقول في ذكر سبب مقتل المتوكل: "وَكَان سَبَبُ قَتلِهِ أَنه أَمَرَ بإنشَاءِ الكُتبِ بِقَبْضِ ضِيَاعِ (وَصِيْف) بِأَصْبَهَانَ وَالْجَبَلِ، وَإِقطَاعَهَا (الفَتْحَ بْنَ خَاقَانَ) فكُتِبَت، وَصَارَت إِلَى الخَاتَمِ، فَبلَغَ ذَلِك وَصِيفًا، وَكَانَ المتَوَكِّل أَرادَ أَنْ يُصلِّيَ بِالناسِ أَوَّلَ جُمعة فِي رَمَضَان، وَشَاع فِي الناسِ، وَاجتَمَعُوا لِذَلكَ، وَخَرَج بَنُو هَاشِمٍ مِنْ بَغْدَادَ لِرَفعِ الْقَصَصِ وَكَلَامِهِ إِذَا رَكِبَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمْعَةِ، وَأَرَادَ الرُّكُوبَ لِلصَّلَاةِ، قَالَ لَه عُبَيْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى، وَالْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ كَثُروا مِنْ أَهلِ بَيْتِكَ وَبَعضهم طَالبُ حَاجَة، وَأَميرُ المؤمِنِينَ يَشكُو ضِيقَ الصَّدرِ، فَإِن رَأَى أَمِيرُ المؤمِنِينَ أَن يَأمُرَ بَعضَ وَلَاةِ العُهُودِ بِالصَّلَاة، وَنَكونَ معَه، فَليَفعَل، فَأَمَرَ (المنتَصِرَ) بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا نَهَض لِلرُّكُوب قالَا لَهُ: يَا أَمِيرَ المؤمِنِينَ، إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَأْمُرَ الْمُعْتَزَّ بِالصَّلَاةِ، فَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ لِتُشَرِّفَهُ بِذَلِكَ، وَقَدْ بَلَغَ اللَّهُ بِهِ، وَكَانَ قَدْ وُلِدَ لِلْمُعْتَزِّ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَدٌ، فَأَمَرَ الْمُعْتَزَّ، فَرَكِبَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ، وَأَقَامَ الْمُنْتَصِرُ فِي دَارِهِ بِالْجَعْفَرِيَّةِ، فَزَادَ ذَلِكَ فِي إِغْرَائِهِ. فَلَمَّا فَرَغَ الْمُعْتَزُّ مِنْ خُطْبَتِهِ قَامَ إِلَيْهِ عُبَيْدُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ، فَقَبَّلَا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ انْصَرَفَ وَمَعَهُ النَّاسُ فِي مَوْكِبِ الْخِلَافَةِ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى أَبِيهِ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهِ عِنْدَهُ، فَسَرَّهُ ذَلِكَ".

هنا يبدو السببان المباشران لحالة الغضب المؤدي للانتقام أو الكره، وهما المصالح الاقتصادية للحرس التركي، والخلافة المهددة (للمنتصر) الذي شعر أن ولايته زائلة بتلك الحادثة وفضل عليه المعتز للصلاة بالناس وتقبيلهم يديه مع سرور والده الخليفة بذلك.

ويستمر (ابن الأثير 1995، 137.6) في ما يشبه تبرير مقتل المتوكل، فيصف حالة التعنيف الشديد لابنه المنتصر، وسخريته اللاذعة منه أمام الناس، بل والطلب من وزيره الفتح بن خاقان أن يلطمه في مجلس لهوه، والخلاص منه ومن قادة الأتراك في القصر، فيروي (ابن الأثير 1995) قائلا: "وَكَانَ قَدْ عَزَمَ ـ أي المتوكل– وَالْفَتْح أَنْ يَفْتِكَا

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

بُكْرَةَ غَدٍ بِالْمُنْتَصِرِ وَوَصِيفٍ وَبُغَا وَغَيْرِهِمْ مِنْ قُوَّادِ الْأَتْرَاكِ، وَقَدْ كَانَ الْمُنْتَصِرُ وَاعَدَ الْأَتْرَاكَ وَوَصِيفًا وَغَيْرَهُ عَلَى قَتْلِ الْمُتَوَكِّلِ. وَكَثُرَ عَبَثُ الْمُتَوَكِّلِ قَبْلَ ذَلِكَ بِيَوْمٍ بِابْنِهِ الْمُنْتَصِرِ، مَرَّةً يَشْتُمُهُ، وَمَرَّةً يَسْقِيهِ فَوْقَ طَاقَتِهِ، وَمَرَّةً يَأْمُرُ بِصَفْعِهِ، وَمَرَّةً يَتَهَدَّدُهُ بِالْقَتْلِ، ثُمَّ قَالَ لِلْفَتْحِ: بَرِئْتُ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِنْ لَمْ تَلْطِمْهُ ـ يَعْنِي الْمُنْتَصِرَ ـ فَقَامَ إِلَيْهِ فَلَطَمَهُ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ أَمَرَّ يَدَهُ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ: اشْهَدُوا عَلَيَّ جَمِيعًا أَنِّي قَدْ خَلَعْتُ الْمُسْتَعْجَلَ، يَعْنِي الْمُنْتَصِرَ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: سَمَّيْتُكَ الْمُنْتَصِرَ، فَسَمَّاكَ النَّاسُ، لِحُمْقِكَ، الْمُنْتَظَرَ، ثُمَّ صِرْتَ الْآنَ الْمُسْتَعْجَلَ.

ويضيف (ابن خلكان1972م 350.1): "أن المتوكل كان يتوعد المنتصر ويسبه ويسب أمه، ويأمر الذين يحضرون من أهل السُّخف بسبّه".

هذه الأخبار توقع القارئ في بعض التعاطف مع ولي العهد المنتصر، ولا تبين اتساع نفوذ الأتراك ودرجة خطورتهم على الدولة العباسية، كما يقول (فروخ 1968م ص 36): "حتى صار رؤساء الجند يتلاعبون بالخلفاء فيقتلون من شاؤوا ويولون من شاؤوا، وقد بدأ استعلاؤهم بقتل المتوكل نفسه، ثم لم يبق للخلافة زهوٌ بعد ذلك ولم يبق للخلفاء سلطان"، وكذلك درجة السيطرة على مفاصل الدولة التي يوضحها (مصطفى1984م ص30) من: "أن الأتراك دبروا المؤامرات وأساؤوا التصرف في شؤون الحكم والإدارة".

ويذكر (ابن خلكان 1972 ص 350.1) أن المنتصر سعى في قتل أبيه، ووجد الفرصة في تلك الليلة، ويذكر شيئا من المصادفات العجيبة في وصف القتل فيقول: "إن المتوكل هو من أهدى السيف الذي قتل به إلى ابنه المنتصر وهو أول من دخل عليه فضربه وقطع حبل عاتقه".

ويظهر هنا جليا أن رواية ابن خلكان تختلف عن رواية ابن الأثير من أن الحرس التركي هو من قام بالدخول على المتوكل، وقتله مع الفتح بن خاقان، وإن كان هذا بموافقة المنتصر؛ إلا أنه لم يشارك في القتل.

وهذه النبذة عن قصة قتل المتوكل كما يرويها المؤرخون يغلب عليها جانب السرد الطويل فلا يكاد البحث يحتمل زيادتها، بالإضافة إلى المبالغة في تزيين الحالة، ووضع الكثير من الأحداث بقصد الإثارة، وإن كانت كل الروايات تظهر مقتل خليفة عباسي باعتباره أمرا غير مستغرب، ويمكن استنتاجه من خلال تاريخ الخلفاء العباسيين المليء بالصراعات والتصفية للخصوم.

ويبدو من روايات المؤرخين المتعددة أن المتوكل قد وقع في نفس غلطة جده الرشيد عندما عقد الولاية لثلاثة من أبنائه (الأمين فالمأمون فالمؤتمن)؛ وأدى ذلك إلى اقتتال شديد راح ضحيته الكثير، فقد قام المتوكل بعقد الولاية لثلاثة

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

من أبنائه – المنتصر ثم المعتز ثم المؤيد – ولم تكن قلوب الأتراك مطمئنة إلى المتوكل، فعملوا على استغلال كره المنتصر لأبيه المتوكل؛ بسبب تفضيل المتوكل لولده المعتز على المنتصر، فخاف المنتصر فوات الخلافة منه لأخيه؛ فتآمر مع بعض قادة الأتراك على قتل أبيه المتوكل، فقتلوه بسيوفهم، وقتلوا معه صديقه الفتح بن خاقان وأشاعوا أن الفتح هو الذي قتله، وأنهم قتلوه لفعلته، ثم ولّوا المنتصر مكانه.

ولربط الأحداث التي تبدو جلية عند كتبة التاريخ ـ ولا مجال للحديث عن صدقها ـ فإن البحث يدرس إمكانية الاستعانة بالأدب من حيث كونه حافظا للجانب الأكبر من التاريخ، ويصلح للاستشهاد به من الناحية التاريخية، وتعديل ما لحق بالرواية من زيادة أو تعميم أو إغفال.

فللأدب وظيفة تاريخية بحسب (الأشرف ب ت) في مقال بعنوان (وظائف الأدب الهادف): "فهو مرآة المجتمع، و انعكاسه من خلال جميع الأحداث والوقائع التي تمر بالأمة الإسلامية، فالأديب في أحيان كثيرة يكون مؤرخا، عكس المؤرخ الذي نادرا ما يكون أديبا في نقل التاريخ بحذافيره بطريقة علمية رصينة عكس الأديب الذي يستطيع المزج بين الصورة الأدبية الهادفة والملتزمة وبين نقل الوقائع التاريخية"، وكما هو الحال مع الشواهد النحوية في المسائل اللغوية، فلن تجد المقارنة أفضل من شاعر البلاط الذي عاصر المتوكل، ومدحه بقصائد طوال، ومدح وزيره الفتح بن خاقان، وكان قريبا من المشهد بشكل كبير.

ولوضع المقارنة بين نص البحتري في رثاء قصر الجعفري وساكنيه مع ما ورد في كتب التاريخ، والتعامل مع النص كمعيار دلالي، ولوضع الشكل المقبول لمسألة تداعي الأحداث، ومعرفة المسؤول المباشر عن مؤامرة القتل، كان على الباحث أن يدرس علاقة الشاعر بديوان الخلافة ومدى توغله في أسرار الحكم، وسواء كان البحتري صاحب رأي ومشورة أم مجرد شاعر مداح؛ إلا أن القصيدة التي حفظها التاريخ كانت مليئة بالأحداث والأسماء، والنص على نسقه الطللي بحسب (إبراهيم 2010م ص 8): "إذ يتوافق مع الحقيقة التاريخية التي تتحدث عن مقتل المتوكل فجأة وغيلة؛ فإنه لا يقدم الحديث بلغة مجازية متجاوزا الحقيقة التاريخية من أجل الحقيقة الفنية التي تجسد المشاعر الإنسانية، وتنقذ النتاج الأدبي من التقريرية، لتنقله إلى مستوى جمالي يعزف على وتر الأحاسيس".

من أجل ذلك يحاول الباحث تتبع حياة البحتري، وعلاقته بالخلفاء العباسيين، ودراسة قصيدته التي يرثي بها المتوكل؛ لاستنباط بعض الأحداث التي يمكن جعلها أساسا متّبعا، وتعيد إلى الرواية التاريخية بعضا من توازنها.

2– البحتري :

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

البحتري عند (البغدادي 1955م ص 500) في هداية العارفين: "هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحي الطائي المنبجي الأديب الشاعر الشهير البُحتري بضم الباء".

وعند (النديم ب.ت ص 190) في الفهرست "الوليد بن عبادة، له من الكتب: كتاب الحماسة على مثال حماسة أبي تمام، وكتاب معاني الشعراء"، وهو كما أوضح (سزكين1991م، ص 134) "الوليد بن عبيد الله، كنيته أبو عُبادة وأبو الحسن، أصله من بحتر طيء"، ويذكره كحالة (1993، 170.13) بشكل مفصل من أنه: "الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شملال بن جابر بن مسلمة بن مسهر بن الحارث بن جشم الطائي، البحتري (أبو عبادة) أديب، شاعر، فصيح، بليغ، ولد بمنبج من أعمال حلب، وبها نشأ، وخرج منها إلى العراق، فمدح جعفرا المتوكل على الله وخلقا من الأكابر والرؤساء. وأقام ببغداد دهرا طويلا، ثم عاد إلى منبج، وتوفي بها"، أو في حلب كما يذكر (النديم) ومن آثاره: ديوان شعر في مجلدين، معاني الشعر، والحماسة".

يورد(سزكين1991م، ص 134) أن البحتري "اتصل بالمتوكل عن طريق وزيره الفتح بن خاقان، ثم ارتحل إلى منبج بعد وفاة المتوكل، ليعود إلى بغداد أيام المنتصر بن المتوكل، ليؤدي دورا في خلافة المعتز (252 ـ 255هـ) ونظم أيضا قصيدة في مدح المعتضد، ثم غادر بغداد، وتوفي بعد مرض طويل بمنبج سنة (284هـ)، وقيل سنة (283هـ).

ويقول بروكلمان (1983م، ص 48) إن البحتري "حين لم يحظ من المنتصر والمعتز بطائل غادر بغداد وثأر لنفسه فهجا كلا الخليفتين هجاء قبيحا".

وكان البحتري متلونا كما يقول (بروكلمان1983م، ص 49) من أنه قال بيتا في قصيدة يعترف فيه بأنه قدري فلما سئل عن ذلك قال: "كان هذا ديني أيام الواثق، ثم نزعت عنه في أيام المتوكل".

والتعريف بالبحتري بشكل مفصل وبيان علاقته بقصر الخلافة مهم في هذه المسألة؛ لأنه يحدد مدى قربه أو بعده عن الحدث، والوقوف على مصداقية روايته، التي بدت مختلفة إلى حد ما.

فقد كانت حياة البحتري حياة شاعر متنقل، يطرق باب الخلفاء، يمدحهم ويأخذ عطاياهم، ولا يتورع عن ذمهم إن تجاهلوه، وتلك العلاقة كانت ديدن الشعراء في كل الأوقات، غير أن البحتري استطاع التأقلم مع تغير الخلفاء وعاصر الكثير من الخلفاء العباسيين بداية من الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمعتضد.

ثانيا – الرثاء المختلف في ذكر المتوكل:

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

في العصر العباسي استحدثت أنواع كثيرة من الرثاء، كما تقول: (سكينة قدور2013، ص37) مثل "رثاء الشباب الآفل، والمدن المنكوبة، والحيوانات الأليفة، وغيرها من الأشياء التي ارتبط بها الشاعر وكانت مصدر متعة له كبستان اعتُدي عليه، أو لوح سُرق منه، ومن هنا كان هذا النوع من الرثاء في معظمه انعكاسا لحياة الترف التي أمدَّت الشاعر العباسي بكثير من ضروب النعيم واللذة؛ كان فقده لها فجيعة استدعت هذا الرثاء فكان جديدا في موضوعه ومعانيه".

لكن البحتري في قصيدته حاول مزج رثاء الأماكن وما حل بها برثاء الخليفة المتوكل، وجعل تأثير فقدهما موحدا، ولم يفصل في مشاعره بينهما إلا في آخر القصيدة، فكان أقرب إلى المتفجع منه إلى الحزين المتألم من وقع الخبر.

وقد خلَّف البحتري كما يقول (عيسى، ب.ت ص263): "ثروة شعرية تكاد تصل إلى ستة عشر ألف بيت؛ تلك الثروة الهائلة لم تكن عبقا ولا لغوا من القول، وإنما هي نمط من الشعر ذي الصياغة الفنية المتميزة، تصدر عن شاعر ذي رؤية مرهفة وواعية بطبيعة هذا الفن وعناصر صياغته المتمثلة في الصيغة والصورة والإحساس، وقيمة كل من اللفظ والمعنى ومعايير الجمال والصحة".

والأدب كما هو فن يعبر عن حقيقة شعور الإنسان وطبيعة إحساسه تجاه غيره وتجاه الطبيعة بمختلف مظاهرها، بحيث تحكمه عاطفة الأديب ويوجهه خياله؛ إلا أن ذلك لا يمنع من أن يستفيد من الحقائق في سبيل تعظيم هذه العاطفة، وتقوية هذا الخيال لسبك صورته الفنية والجمالية فيغدو بهذا جامعا بين الإفادة والتأثير.

وللمرثية جانبها الطللي؛ فالشاعر يستهل نصه كما يقول (إبراهيم 2010 ص7): "بالحديث عن إقفار المكان بلغة إخبارية، حتى لَيبدو للمتلقي أن الاستهلال لا يعدو أن يكون اجترارا للوحات طللية سابقة، فالمكان لعبت به صروف الدهر، وتعاورته رياح الصبا لتطمس معالمه، وكأنها بهذا الفعل تمارس طقسا دينيا (توفي نذورا) إلا أن الطلل هنا هو مكان واقعي على نهر القاطول الذي حُفر في زمن المتوكل وليس مكانا متخيلا.

وبهذا يبدأ البحتري وصفه للحادثة باعتبارها حدثا عظيما لا ينبغي تجاهله، والتمعن في صروف الدهر حين تغير الحياة من حال إلى حال:

مَحَلٌّ على القَاطُولِ أخْلَقَ داثِرُهْ ** وَعادتْ صُرُوفُ الدّهرِ جَيشاً تُغاوِرُهْ
كأنّ الصَّبا تُوفِي نُذُورًا إذا انبَرَتْ ** تُرَاوِحُهُ أذْيَالُهَا، وَتُبَاكِرُهْ
وَرُبّ زَمَانٍ نَاعِمٍ ثَمّ عَهْدُهُ ** تَرِقُّ حَوَاشِيهِ، وَيُونِقُ نَاضِرُهْ

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

جامعة عمر المختار
كلية التربية ـ البيضاء
مجلة كلية التربية (مجلة علمية محكمة)
العدد الثالث لعام 2018

تَغَيّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِيّ وأُنْسُهُ ** وَقُوّضَ بَادي الجَعْفَرِيّ وَحَاضِرُهْ

واستذكار الشاعر للقصر يجعله يحس بالدهشة المرعبة، فكل شيء قد تقوَّض حتى كأن شيئا لم يكن، فالخلافة قد غُيِّبَت، والقصر قد زالت مكانته على الرغم من استمرار الخلافة بعد المتوكل وتنصيب ابنه خلفا له.

والبحتري فنيا يعرف كيف يصوغ أبياته في إطار حزين ذي شجون، فيستخدم صيغ التنكير للمحل والقصر والزمان، ويستخدم الماضي والحاضر كمعيار زمني لما كان قائما واندثر حالا.

ومع البداية الطللية التي لا تتَّهم أحدا، بقدر ما تصف حال الذعر والخوف الشديدين، لما آل إليه الحال، وتحول القصر إلى أثر بعد عين، يبدو طغيان الجانب الوصفي على النص في بدايته، فيما يشبه المقدمة، ليتحول الحديث إلى مستوى آخر، حيث الانتقال من مرحلة الصدمة والمفاجأة إلى التساؤل والاستغراب، ثم الغضب مما جرى، وفي الأبيات التالية تبدو السمة الطللية بارزة، ورغبة البحتري في الوصف طاغية، فيقول:

تَحَمّلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ، فُجَاءَةً ** فَعَادَتْ سَوَاءً دُورُهُ، وَمَقَابِرُهْ

إذا نَحْنُ زُرْنَاهُ أجَدّ لَنَا الأسَى ** وَقَد كَانَ قَبلَ اليَوْم يُبهَجُ زَائِرُهْ

وَلم أنسَ وَحشَ القصرِ إذ رِيعَ سِرْبُهُ ** وإذْ ذُعِرَتْ أطْلاؤهُ وَجَآذِرُهْ

وإذْ صِيحَ فيهِ بالرّحِيلِ، فهُتّكَتْ ** عَلى عَجَلٍ أسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهْ

وَوَحْشَتُهُ، حَتّى كأنْ لَمْ يُقِمْ بِهِ ** أنيسٌ، وَلَمْ تَحْسُنْ لعَينٍ مَنَاظِرُهْ

كأَنْ لَمْ تَبِتْ فيهِ الخِلافَةُ طَلْقَةً ** بَشَاشَتُها، والملكُ يُشرِقُ زَاهِرُهْ

وَلَمْ تَجْمَعِ الدّنْيَا إلَيهِ بَهَاءَهَا ** وَبَهجَتَها، والعيشُ غَضٌّ مكاسِرُهْ

وهذا النسق اشتهر به البحتري من حيث الصنعة والدماثة، وسوق الكلام من دون مشقة، كما يري (القيرواني 1981م 130.1) حين يصف البحتري بأنه: "أملح صنعة، وأحسن مذهبا، يسلك فيه دماثة وسهولة، مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ، لا يظهر عليه كُلفة ولا مشقة". ثم يبدأ أسلوب الاستفهام في النص، الذي ينبئ بعنصر المفاجأة، وعدم يقين الشاعر بسلوك الحرس، ولا يعرف مقدار إخلاصهم في قصر يعج بالأتراك، والخليفة عادة لا يُطلِع الشعراء على نظامه الداخلي، فكان التساؤل هو السمة الأبرز في روايته، وإن كان كل بيت يكاد يخبر بما يخفيه الشاعر من حقائق في معاني أبياته، فيقول:

فأينَ الحِجابُ الصّعبُ حَيثُ تَمَنّعَتْ ** بِهَيْبَتِهَا أبْوَابُهُ ، وَمَقاصِرُهْ

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

وأينَ عَمِيدُ النّاسِ في كلّ نَوْبَةٍ ** تَنُوبُ، وَنَاهي الدّهرِ فيهِمْ، وآمرُه

من هنا يبدأ وصف البحتري للحادثة بما ينبئ عن شخص يدري بما حصل فعلا، ويعرف التفاصيل الدقيقة؛ فيقول في وصف لا يحتمل التأويل:

تَخَفّى لَهُ مُغْتَالُهُ، تَحتَ غِرّةٍ ** وَأَوْلَى لِمَنْ يَغتالهُ لو يُجَاهِرُهْ

فَمَا قَاتَلَتْ عَنْهُ المَنَايَا جُنُودُهُ ** وَلاَ دَافَعَتْ أَمْلاَكُهُ وَذَخَائِرُهْ

وهذان البيتان تحديدا يخالفان مسألة القتل الجماعي، إذا اعتمدنا حيادية الرواية؛ فالقاتل وحيد متخفٍّ، يخشى فضح أمره واكتشاف جريمته، والخليفة معزول عن أتباعه،لم تدافع عنه أملاكه ولا أسلحته، في حين أننا نجد قصة مختلفة عند رواة السير، منها ما أورده (الكتبي 765هـ 1/ 429) من أن القتل كان عيانا وعلى مرأى من وزيره (الفتح بن خاقان) الذي ألقى بنفسه على المتوكل قائلا: "لا حياة لي بعدك، فقطعوه بالسيف أيضا".

وتتوالى المواقف في النص الذي يجد العذر للمعتز ابن الخليفة، الذي لم يكن موجودا حسب رواية البحتري لنصرة أبيه فيقول مشيرا إليه في بيت واحد:

ولاَ نَصرَ المعتَزَّ مَنْ كَانَ يُرْتَجَى ** لَهُ، وَعَزِيزُ القَوْمِ مَنْ عَزّ ناصِرُهْ

ومما يدعو للتساؤل أن البحتري لم يذكر الفتح بن خاقان، صاحب الفضل عليه إلا تلميحا، وهو الذي نال منه حسب (فروخ 1980 ص 357): "مالا كثيرا صحبة الخليفة المتوكل"، ولم يحظ منه إلا ببيت واحد صحبة عبدالله بن طاهر والي خراسان، هذا التجاهل ربما كان ضمن حالة عدم الفهم واللغط الشديد في تحديد هوية القاتل، ونظرا للتشويش الذي فرضه الأتراك على موقف الفتح، وأنه ربما كان قُتلَ نتيجة فعلته حسب رواية الحرس، لذا نجد البحتري يذكره بشكل خجول، فيفصح باسم عبدالله بن طاهر بشكل مباشر، في حين يغيب الوزير ابن خاقان تحت وصف يدل عليه وهو (فَتحُه) كما يفسره محقق الديوان:

تَعَرّضَ نَصلُ السيفِ مِن دونِ فتحِهِ ** وَغُيّبَ عَنهُ في خُرَاسَانَ، طاهِرُهْ

ولا يبدو على البحتري من خلال ألفاظه أنه واقع تحت أي ضغط، فهو يُهدِّد ويتوعد، ويطلب القصاص بشكل مباشر، وهذا يدعو للشكِّ في الزمن الحقيقي لهذه المرثية، وما إذا كانت قيلت في المكان عينه، لأن كمية الاتهام كبيرة جدا، ولا يمكن فصلها عن المتهمين بالقتل، وقصيدة كهذه كفيلة بفضح الكثيرين، وإن لم تفصح عن المنفذين

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

صراحة، فالقاتل في رواية البحتري غير معروف، كما أن الاستعانة بعبيد الله بن طاهر والي خراسان، تبدو منتظرة ومتوقعة، لما يتمتع به من نفوذ في زمن المتوكل، والحديث عن دور له في كشف الحقيقة أمر مقبول ومبرّر، حسب ما قال البحتري في مجمل وصفه:

وَلَوْ عَاشَ مَيْتٌ، أوْ تَقَرّبَ نَازِحٌ ** لَدَارَتْ مِنَ المكْرُوهِ ثَمّ دَوَائِرُهْ
وَلَوْ لعُبَيْدِ الله عَوْنٌ عَلَيْهِمُ ** لَضَاقَتْ عَلَى وُرّادِ أمْرٍ مَصَادِرُهْ
حُلُومٌ أضَلّتْهَا الأمَانِي، وَمُدّةٌ ** تَنَاهَتْ، وَحَتفٌ أوْشَكَتْهُ مَقَادِرُهْ
وَمُغْتَصَبٍ للقَتلِ لَمْ يُخْشَ رَهْطُهُ ** وَلَمْ تُحْتَشَمْ أسْبَابُهُ وَأوَاصِرُهْ

ودور البطولة يتصاعد عند البحتري الذي تقول معظم الروايات إنه لم يكن موجودا في المكان، وذهب بعضهم إلى القول إنه كان مختبئا في أروقة القصر ولم يجرؤ على الخروج؛ لكنه في المرثية يظهر مستعدا للدفاع عن الخليفة، ويتأسف لكونه غير موجود ساعة الغدر؛ ليري القاتل كيف يكون الدفاع عن الخليفة المصروع، وكيف تكون نهاية قاتله:

صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السّيُوفُ حُشَاشَةً ** يَجُودُ بها، والمَوْتُ حُمْرٌ أظافرُهْ
أُدافِعُ عَنهُ باليَدَينِ، وَلَمْ يَكُنْ ** لِيَثْنِي الأعَادِي أعزَلُ اللّيلِ حاسِرُهْ
وَلَوْ كَانَ سَيفي ساعةَ القتل في يدي** درَى القاتلُ العَجلانُ كيفَ أُساوِرُهْ
حَرَامٌ عليّ الرّاحُ بَعْدَكَ، أوْ أرَى ** دَماً بدَمٍ يَجرِي عَلى الأرْضِ مائرُهْ
وَهَلْ أرْتَجِي أنْ يَطْلُبَ الدّمَ وَاترٌ ** يَدَ الدّهْرِ، والمَوْتُورُ بالدّمِ وَاتِرُهْ

وقد يأخذنا هذا إلى ضرورة التثبت من رواية كل طرَف، كما لا يجب الاستشهاد برواية طرَف لتكون دليلا على الآخر، فكل الروايات التي تصف البحتري بالجبن تضعه في دائرة بعيدة عن الحدث، ولا توليه اهتماما، بينما يُظهرُ البحتري نفسَه بشكل مغاير، ويتعامل مع الأمر باعتباره صاحب رأي ومشورة، ويحرض أيضا على الانتقام لمقتل الخليفة.

ومن الصعب نفي الرواية التاريخية باجتماع الرأي حول موقف البحتري، وعدم ذكرهم له إلا باعتباره شاعر بلاط، كما يقول (فروخ 1980م ص 358): " من أن البحتري عاد إلى منبج، ولكن سرعان ما نازعته نفسه إلى

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

التكسب؛ فرجع إلى بغداد ومدح المنتصر والمستعين والمعتز والمعتمد، ولكن الحظوة التي نالها من المتوكل ووزيره الفتح بن خافان لم ينل مثلها، فغادر العراق نهائيا سنة 279هـ".

كما لا يمكن أيضا غض الطرف عن نص ثابت مروي، لم يتعرض للنقد في أحداثه أو إشاراته التاريخية، إنما يمكننا توثيق القصة بشكلها العام، وترك التفاصيل لخيال المؤرخين وبلاغة الشعراء، ومنح الصورة التي رسمها البحتري شيئا من المصداقية.

ومما يدعم الظن أن القصيدة قيلت بعيدا عن المكان أو في زمن لاحق؛ هو التصريح العلني بتورط وليّ العهد (المنتصر) في مقتل أبيه، وإن جاء هذا على سبيل التساؤل، إلا أن السياق يجعل من السؤال بمثابة إجابة كاملة، ومطالبة الأمير صاحب النفوذ ليظهر دوره الحقيقي في الحادثة، وهو الذي بُويِع بالخلافة في ليلة مقتل أبيه، فكان التساؤل في البيت والإشارة إلى سوء فعلته فيما بعده واضحا في قوله:

أكانَ وَليُّ العَهْدِ أضْمَرَ غَدْرَةً؟ ** فَمِنْ عَجَبٍ أنْ وُلِّيَ العَهدَ غادرُهْ
فلا مُلِّيَ البَاقي تُرَاثَ الذي مَضَى ** وَلاَ حَمَلَتْ ذاكَ الدّعَاءَ مَنَابِرُهْ
وَلاَ وَأَلَ المشْكُوكُ فيهِ، وَلا نَجَا ** من السّيفِ ناضِي السّيفِ غدراً وَشاهرُهْ
لَنِعمَ الدّمُ المسْفُوحُ، لَيلَةَ جَعفرٍ ** هَرَقْتُمْ، وَجُنحُ اللّيلِ سُودٌ دَيَاجِرُهْ
كأنّكُمْ لمْ تَعْلَمُوا مَنْ وَلِيُّهُ ** وَنَاعيهِ تَحْتَ المرْهَفَاتِ وَثَائِرُهْ

ويختم البحتري قصيدته بالرجاء أن يوكل الأمر لخلف لا يغادر سَلفه، ويسير على نهجه، ويعيد الأمور إلى نصابها، بعيدا عن التآمر وما تضمره النفوس:

وإنّي لأرْجُو أنْ تُرَدّ أُمُورُكُمْ ** إلى خَلَفٍ مِنْ شَخصِهِ لا يُغَادِرُهْ
مُقَلِّبِ آرَاءٍ تُخَافُ أنَاتُهُ ** إذا الأخرَقُ العَجلانُ خيفتْ بَوَادرُهْ

الخاتمة

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

هذا بحث محصور في جانب واحد ومحدد، لا يسعى لكشف براعة البحتري في الوصف، ولا يتحدث عن سبقه في وصفه، ولا يناقش رأي النقاد فيه؛ بل يقارن ما تناولته مرثيته بما ورد في كتب التاريخ عن قضية مقتل المتوكل، ومحاولة التوفيق بين الروايتين بشكل علمي، وإن كان البحث يميل نحو الغياب الحقيقي لزمن القصيدة، والزيادات التي ربما طرأت على النص، هذا النص الذي يسطع بشجاعة أدبية وشخصية طاغية، لا يمكن أن يحملها شاعر في وقت تُحل فيه الصراعات بالسيف.

ولعل أبرز ما أفاده البحث هو الجو العام الذي عاشه الخلفاء في العصر العباسي، وكمية القلق الشديد على مستقبلهم في كرسي الخلافة، على الرغم من الثروات الطائلة، وميلهم إلى التمتع بالحكم لأكثر وقت، أما الفرضية فقد بينت إمكانية التعويل على النص الشعري في تحقيق توازن مقبول، بين الخبر التاريخي الجامد، والوصف الشعري الجمالي، لتظل تلك الحادثة بداية لمرحلة جديدة في تاريخ الخلفاء العباسيين بعد المتوكل، ومضرب المثل في انقضاء الأجل ولو كان الخليفة في برج محصن، كقول أبي القاسم الزعفراني في وصف هذا مستشهدا بالمتوكل:

فَاطْرَبْ سرُورا بِالزَّمَان وحُسنِهِ ** واشرَبْ على إقبالِ دَوْلة مُقبلِ
كَم آمنٍ مُتَحصِّنٍ في جَوسَقٍ ** قَد بَاتَ مِنهُ بليلَة المتوكّل

المصادر والمراجع

1. ابن الأثير. أبو الحسن. تحقيق: عبد الله القاضي (1995م). الكامل في التاريخ. ط2. بيروت. لبنان: دار الكتب العلمية.
2. ابن خلكان. (1972م) أبو العباس. تحقيق: د إحسان عباس. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. م1. بيروت. لبنان. دار صادر.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

3. ابن كثير. إسماعيل. تحقيق علي شيري (1988م) البداية والنهاية. ط1. مصر. دار إحياء التراث العربي.
4. بروكلمان. كارل. ترجمة: د. عبدالحليم النجار (1983م). تاريخ الأدب العربي. (ب.ط). القاهرة. مصر. دار المعارف المنظمة العربية للتربية والثقافة جامعة الدول العربية.
5. البستاني. كرم. (1980م). ديوان البحتري، أبو عبادة الوليد. (ب.ط). بيروت. لبنان. دار بيروت للطباعة والنشر. م1.
6. البغدادي. (1955م). إسماعيل. هديّة العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. (ب.ط) بيروت. لبنان. دار إحياء التراث العربي. م2.
7. سزكين. فؤاد. ترجمة: عرفة مصطفى. (1991م) تاريخ التراث العربي. الشعر إلى حوالي 340هـ. (ب.ط). م2.ج4. السعودية. منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود.
8. ضيف. شوقي (1971م) فصول في الشعر ونقده. ط.1. القاهرة. مصر. دار المعارف.
9. عيسى. جمال (ب.ت). الشعر العباسي بين البادية والحاضرة. طنطا. مصر. كلية الآداب طنطا.
10. فرّوخ. د. عمر. (1968م). تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية. الأدب المحدث إلى آخر القرن الرابع الهجري. ط1. بيروت. لبنان. دار العلم للملايين.
11. قدور. (2013م). سكينة. محاضرات في أدب العصر العباسي. جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة. الجزائر. كلية الآداب والحضارة الإسلامية.
12. القيرواني. ابن رشيق. تحقيق: محيي الدين عبدالحميد. (1981م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ط5. بيروت. لبنان. دار الجبل للنشر.
13. الكتبي. محمد. تحقيق: إحسان عباس. (764هـ). فوات الوفيات والذيل عليها. (ب.ط). بيروت. لبنان: دار صادر.
14. كحالة. عمر. (1993م). معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية. ط1. دمشق. سوريا. مؤسسة الرسالة.
15. مصطفى. محمد. (1984م). اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجري. ط1. بيروت. لبنان. دار الأندلس للنشر.
16. النديم. أبو الفرج محمد. تحقيق رضا تجدد. (ب ت). الفهرست في أخبار المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم. (ب.ط).

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

المجلات العلمية:

1. إبراهيم. د. يسري. (2010م). اللوحة الطللية ودلالتها في مرثية البحتري للمتوكل. كلية التربية. جامعة الموصل. الموصل. العراق. مجلة التربية. م17 العدد3.
2. خلوفة. عبد العزيز. (2014م). نظرية الأدب عند محمد مندور. دراسات أدبية وفكرية. المملكة المغربية. مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية. العدد الأول.

المواقع الإلكترونية:

1. حسن الأشرف. (ب ت) وظائف الأدب الهادف، موقع كلمات ركن الأدب http://kl28.com.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©